

القول الفلسفي للحدثاء لـ يورغن هابرماس

Le discours philosophique de la modernité

ترجمة إلى العربية فاطمة الجبوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995 .

محتويات الكتاب

1. الحدثاء وعيها للزمان وحاجتها إلى إيجاد ضمانات خاصة في داخلها.
2. مفهوم الحدثاء عند هيجل.
3. منظورات ثلاثة: هيجليو اليسار وهيجليو اليمين ، ونييتشه.
4. الولوج الى ما بعد الحدثاء، نييتشه بمثابة مفترق طرق.
5. التواطؤ بين الأسطورة والأنوار، هوركهايمر وأدورنو.
6. العقلانية الغربية الراشحة من نقد الميتافيزيقا، هيدغر.
7. المزودة على فلسفة الأصل المتزامن، نقد دريدا للتمركز على الكتابة الصوتية.
- 8 . بين الايروس والاقتصاد العام، باتاي.
9. نزع القناع للعلوم الإنسانية عبر نقد العقل، فوكو.
10. احراجات نظرية في السلطة.
- 11 . العقل التواصلي، درب آخر للخروج من فلسفة الذات استطراد حول التأسيس التخيلي للمجتمع عند كورنيليوس كاستورياديس
12. المضمون المعياري للحدثاء.

تمهيد الكتاب

"الحدثاء مشروع لم ينجز بعد" هو عنوان لمحاضرة ألقاها هابرماس سنة 1980 بمناسبة استلامه لجائزة

أدورنو، حيث شكلت الحدثاء موضوعاً فلسفياً مطروحاً بحدّة في الأوساط الفكرية والفلسفية خاصة بعد النقد اللاذع للمشروع الحدثاء الغربي من قبل أعضاء مدرسة فرانكفورت الأوائل، ثم أعقب ذلك ظهور البنيوية في الأوساط الفرنسية وكتابات جان فرنسوا ليوتار عن "الوضع ما بعد حدثاء". يستعرض هابرماس موقفه من الحدثاء، عبر حوارية يقيمها مع الفلاسفة الحاملين للواء الحدثاء والمدافعين عنها من جهة، وبين قطب ثانٍ من الفلاسفة الراضين لذات المشروع الحدثاء، ولعل كتابه الرئيس >> القول الفلسفي للحدثاء << يبرز سمة هذه الحوارات التي يقيمها هابرماس، ومنه يمكن مَوْعُة هابرماس ضمن خانةٍ وسط بين الاتجاهين، فهو لا يبيح تأييده المطلق للحدثاء وإن بشكل مؤقت، كما لا يعلن رفضه التام للمشروع إلا في مستوياته الانحرافية الاعقلانية والمنتكرة للعقل، بسبب الإنحراف الذي أصاب مشروع الحدثاء، من هنا يؤسس موقفه من الحدثاء معلناً أنها مشروع ناقص ولم يكتمل بعد، فهو يؤكد على أهمية الحدثاء كمشروعٍ إنساني متعدد الأبعاد أين يظهر إهتمام هابرماس البالغ بالحدثاء من خلال حواراته وتقلاته المتعددة عبر الحقول الفلسفية، فهو يشيد بالدرس الفلسفي لماكس فيبر الذي يصفه باعتباره مرجعاً أساسياً للحدثاء من خلال ما أضفاه فيبر من تحديد وقرارات على ماهيتها، وتعود جذور الحدثاء في منظور هابرماس إلى عصر النهضة الأوروبية مع بداية تداول لفظ حديث لأول مرة ثم اتسع الإهتمام بالحدثاء عقب أن تحولت إلى موضوع للنقاشات الفلسفية للقرن الثامن عشر، ثم إن الحدثاء كمشروع تأخذ وتحدد معياريتها من ذاتها " فهي - يشير هابرماس لا تقدر ولا تريد أن تستعير المعايير التي على أساسها تتوجه من مرحلة تاريخية إلى أخرى، إنها مضطرة لأن تستمد معياريتها من ذاتها وبدون استعانة ممكنة فالحدثاء لا ترجع إلا إلى ذاتها " ¹، فالحدثاء تتخذ لدى فيبر أشكالاً مغايرة من حيث الإعتبار الذي يطرحه فيبر في محاولته لعقلنة الحدثاء، وإعطائها بعداً غائباً.

¹ هابرماس يورغن، القول الفلسفي للحدثاء، مصدر سابق ص10.

1/ إن وضع الحداثة موضع تساؤل فلسفي يدشنه هابرماس من تأملات ماكس فيبر السوسيولوجية التي

اعتبارها بمثابة مسألة تنتمي إلى التاريخ العام الأوربي، إذ يسميها "فيبر" مرحلة التعقيل أو العقلنة *Rationalisation* التي خاضتها أوربا مؤخرًا، " إذ أن التطور الفني والسياسي والاقتصادي لأوربا يعود إلى دروب التعقيل الخاصة بالغرب. " وهي صفة لازمة للغرب فقط بدأت مع " فك السحر عن العالم " (*Désenchantement du monde*) وما لحقها من انهيار التصورات الدينية للعالم من غير رجعة، ما أوجد ثقافة علمية وعلمانية محضة انطبعت العقلانية على الجماعات الحديثة أو الرأسمالية.

إن الحداثة هي مسار العقلانية الغربية في نظر ماكس فيبر أي التاريخ الموضوعي للبنى العقلانية (اقتصادية واجتماعية وسياسية) ونماذجها هي الرأسمالية والليبرالية والفردانية.

هناك من رأى اكتمال المشروع التحديثي الغربي وألآن نحن أمام وضع ما . بعد حدثي أمثال هؤلاء فلاسفة الاختلاف الذين ينهلون من النقد المنتشوي والهدغري اللاذع للحداثة الغربية، فالعلم والتقنية مثلا هي السمة الأخيرة للمجتمعات الحديثة.

2/ بداية تسمية الحداثة كانت مع هيجل، في سياق تاريخي ليشير إلى " الأزمنة الحديثة" (*Temps moderne*) ويشير بها إلى القرون الثلاثة السابقة، عصر النهضة، اكتشاف العالم الجديد والإصلاح، هذه الأحداث جرت حوالي 1500 م، وهي العتبة التاريخية بين العصور الوسطى والأزمنة الحديثة وهذا التقسيم مازال ساريا إلى يومنا هذا. وفي الواقع أن هذه العتبة لم يتم إدراكها كتحديد زمني إلا في القرن الثامن عشر حيث ظهرت النزعات الفلسفية التاريخية التي تتصور تاريخ خطي ومتماسك للإنسانية وغايته التقدم، لكن إدراك هذا التحديد الزمني يتطلب ما يسميه هيجل بـ " الوعي التاريخي " للراهن لتشكيل أفق المستقبل، معلنا بذلك ان عصر الحداثة في جوهرها وهو نقد التراث بوعي.

3/ لئن افتتح هيجل قول الحداثة ظهر الهيجليون الشباب الذين اسكنوه الديمومة الفلسفية، إنهم من حرروا فكرة نقد الحداثة من الحداثة نفسها ومن العقل الهيجلي نفسه، لقد رأينا عند هيجل أن جوهر الحداثة هي تعانق الماهية والوجود، الواقعي والعقلي في إشارة إلى اكتمال النسق الديالكتيكي في النموذج الحداثي

الغربي، ذلك هو الراهن الذي يصنع التاريخ المعاصر، في أثناء ذلك يطالب الهيجليون الشباب بوضع ثقل الوجود (المادي) على غرار فيورباخ وماركس، الوجود (المثالي) شيلغ، فيخته، (الوجود التاريخي للفرد) كياركوجارد، إن هذا الأخير وماركس يصرّان على نزع التسامي عن الروح ورجوع الذات إلى ذاتها.

3/ ضد ثقافة الحداثة والعقل المتمركز حول الذات يكتب نيتشه بأسلوب مماثل لأسلوب الهجليين الشباب، ولكن هذه المرة ليس نقد النسق الهيجلي من الداخل وإنما محاولة تفجيره من الخارج، ولن يكون له ذلك إلا بنقد منابع النظرة التاريخية للفكر التي أوجدها هيجل وأتباعه، إذ يرى أن الثقافة الحالية أو الوعي الحديث، مثقلة بالمعرفة التاريخية المبنية على الأسطورة مثل أسطورة التقدم والحرية أو أن الحاضر أعظم وأرقى هي مجرد أكذوبة، بالمثل ما تلجأ إليه العلوم الإنسانية التي تخضع لموضوعية زائفة، كان هدف نيتشه في الأخير هو تفجير الغلاف العقلاني للحداثة وبيان أن البشرية قد تكون لاتزال تعيش في أسطورة لا عقلانية وهي من انتاجات العقل نفسه.

4/ من هذا المنطلق يبدأ "هوركهايمر" وأدورنو" في "جدلية العقل" ونقد الحداثة، إذ أن كتاب جدل التنوير أعاد طرح السؤال التفكيري عن العقل وماهية الأنوار في جذرية لا يسبق لها مثيل، ففي تقاليد الأنوار فهمت بوصفها فكرا معارضا للأسطورة والتقليد، فالأسطورة تعارض الأنوار، يكسر أدورنو هذا الاعتقاد ويعلن أن " الأسطورة هي ذاتها العقل والعقل ينقلب لميتولوجيا " إن العقل لا يمكنه التواجد إلا داخل مثلولوجيا، في نقد موجه للنزعة الإنسانية، والوعي الحداثي باهتباره وعيا زائفا والثقافة الزائفة، وفي المجمل " أن العقل مجرد أيدولوجيا زائفة " .

5/ بعد المعركة النقدية التي خاضها كل من نيتشه وأدورنو وهوركهايمر، ظهرت محاضرات مارتن هيدغر خلال الثلاثينيات والأربعينيات تستهدف كلها لإعادة السلطة المطلقة للفلسفة التي فقدتها، ويبين أن القول الفلسفي يصنع دائما وفق المنظور المقولاتي للجماعة التاريخية، إنه "منظور انطولوجي يلزم الجماعة كلها". لأن معنى الوجود (Etre) ظهر بطرق مختلفة وفق الأفق التاريخي الانطولوجي الذي نتواجد فيه، فبأي شيء يمكن تفسير الموجود، هل بوصفه روحا أو مادة أو حياة أو إرادة، جوهر، العود الأبدي ..ألخ فإن الموجود يظهر في أفق الوجود في كل مرة وفق هذه النعوت .

وعليه يقر هيدغر صراحة أن تاريخ الغرب في ذاته هو تاريخ الميتافيزيقا، فمنذ ديكارت حتى نتشه، بوصفه آخر قلعة من قلاع الميتافيزيقا وإن الأزمنة الحديثة تبرز تفوق الغرب وسيطرته على الطبيعة

وعلى الأرض وهالتها العليا هي التقنية والعقلانية الغائبة، إنها المرحلة الأخيرة للعدمية الأوروبية إنها الكارثة. "هناك نسيان كلي للوجود تتصف به الحداثة"، إن جهد هيدغر كله يتمحور حول تفكيك هذا النسيان وبالتالي تفكيك الميتافيزيقا الغربية برمته و أن عمل إزالة التضليل (التعتيم) الذي مارسه الميتافيزيقا يسميها هيدغر بعملية الكشف (Dévoilement) وتجاوز (Dépassement) ولن يكون ذلك إلا وفق فكر أصيل، فكر يجد في العدة اللغوية والمفاهيمية أصالة بعيدة عن مفاهيم فلسفة الذات.

6/ ينمي جاك دريدا أفكار هيدغر بشكل مثمر بعد 1968 أي بعد ان بلغ التمرد ذروته ، يتبع دريدا دربا آخر في نقد الحداثة ويسميها بنقد المركزية، مركزية العقل، مركزية الإنسان ومركزية الصوت وهي كيانات ميتافيزيقية أفرزتها فلسفة الوعي الحداثية. وهذا المشروع الدريدي برمته يسمها بعملية التفكيك.

. تهدف استراتيجية التفكيك إلى إعادة قراءة الفكر الغربي قراءة شاملة مع إعادة النظر في المفاهيم التي تأسس عليها كخطاب ميتافيزيقي، مثل الحقيقة، العقل، الهوية، الحضور، الأصل وهي نقد للمركزيات ، كما يرى دريدا أن تفكيك هذه المركزية هو تفكيك للمبدأ الانطو. ثيولوجي للميتافيزيقا الغربية، كما يهدف النقد إلى الانفتاح على الهوامش التي تجاهلته الميتافيزيقا وراء البديهيات والمسلمات والمؤسسات والأنساق التي تنعت نفسها بالعقلانية، ومن ثم سبر أغوار مناطق الصمت والمهمش والمسكوت عنه في التراث الغربي.

في مقابل موقفه الرافض للخطاب الما بعد حداثي يعلن دعمه للحداثة معتبراً أنه من الخطأ الاعتقاد أو الحكم على المشروع الأنواري (الحداثي) بالفشل أو أ لا نجاعة، في حين أنه مشروع ناجح ذو فاعلية ما إن تمت تسويته وتصحيح مساره وتقويمه وتتأسس دافعية هابرماس عن الحداثة عبر فهمية جديدة لها تستدعي نظرية نقدية تواصلية أي عبر الإنتقال والتحول من العقل الأداتي إلى العقل التواصلية، وتتبنى العقلانية التواصلية على آليات وقواعد قائمة على فعل اللغة والنقاهم وذلك بغية تأسيس بناء إجتماعي مدني وسياسي ضمن عقلانية تراعي النزعة الإنسانية وتعمل على إشاعة الديمقراطية ضمن مؤسسات الدولة والمجتمع ضمن فاعلية تواصلية، أين تتوائم النظرية النقدية مع متطلبات الواقع، فبدلاً من التخلي عن الحداثة وإقصائها يلوم الوقوف على مسارها وتنقيته من الشوائب وكذا الحرص على تصحيح أخطائها وتفاذي ما أخفقت فيه، وفي ذات السياق حاول هابرماس إزالة تلك الفجوة بين العلم والتقنية وإصلاح العلاقة بينهما ومن ثم نزع غطاء الإيديولوجيا ففي النهاية ترابط العلم – التقنية بالإيديولوجية ليس يعني

مطلقاً رفضها أو التتكر لقيمتها، على هذا الأساس نجد أن هابرماس ينتقد العقلانية كإفرازٍ حدثي محددًا الإطار الذي للعقل العمل على مساره والسير وفقه.

ولمحاولة إعادة صياغة مضمون الحادثة وتحديد معياريتها يؤكد هابرماس على ضرورة تحديد مضمون الذاتية ومعياريتها " فالعقل المتمركز على الذات ينتج تجريدات تقسم الكلية الأخلاقية إلى قسمين وبالرغم من ذلك فإن التفكير الذاتي وحده افتراضي، إن بإمكانه تحديد ذاته بوصفه قوة مصالحة والذي تبني ذلك هو فلسفة البراكسيس، ومن خلال هذا فإن المضمون المعياري للحادثة لا يمكنه استباق الأدوات المفهومة التي تسمح بتشخيص الأزمة أو تجاوزها " ²، وتتحدد النظرية الإجتماعية لهابرماس بارتباطها مع العالم المعيش الذي يشتمل المجتمع، والأفراد وكذا أبعاده الثقافية وفقاً لذلك فإن المضمون المعياري للحادثة يتحدد وفقاً لذلك لاعتبارين أو إرادتين تتحركان في المجتمع، وهما إرادة التحرر والنزوع نحو السعادة وإرادة السلطة والإنتاج، وتقابل هذين الإرادتين داخل المجتمع هو ما يميز الحادثة، ومن هنا فإن هابرماس يؤكد على ضرورة التفاهم والاتفاق والتواصل الجمعي بين الذوات ك معايير ينبغي أن تسود الحادثة.

ملاحظة : الترقيم هو شرح لبعض عناوين محتويات الكتاب

² مجموعة مؤلفين، التواصل نظريات وتطبيقات، (سلسلة فكر ونقد)، إشراف محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 2010 ص 86.